

نظرية الاتحاد في الفلسفة الصوفية

قبل الشروع في هذه النظرية لا بد من معرفة حقيقة الاتحاد وكنهه، وذلك حتى لا يختلط الاتحاد بالحلول، فالإتحاد والوحدة سيان، وهما من المصطلحات التي تغص بها كتب الصوفية المتفلسفة، وعليه، فإن الحلول يختلف عن الاتحاد، لأن الأول لا يقتضي تصيير الذاتين ذاتا واحدة، بل همة مجرد حلول الحال في المحل، كحلول الماء في الإناء، بينما الاتحاد يقتضي تصيير الذاتين ذاتا واحدة، فهو من أحد الوجوه حلول، وذلك لأن أحدهما يحل في الآخر، ومن وجه آخر ليس حلولاً، لأن كل واحد من الذاتين يفقد طبيعته، سواء كان فقداناً كلياً أو جزئياً، فيحدث من خلال هذه العملية التركيبية ذات أخرى تمثل تينك الذاتين، ولما كان الاتحاد يقتضي ثبوت وجودين، نفى بعض الصوفية كابن عربي الأندلسي (ت هـ) هذه الفكرة عن مذهبه، حيث قال: "إذا كان الاتحاد يصير الذاتين ذاتا واحدة فهو محال، لأنه إن كان عين كل واحد منهما موجوداً في حال الاتحاد فهما ذاتان"¹.

وإنما قال ابن عربي باستحالة ذلك، لأنه يرى أنه ليس ثمة وجودان، والاتحاد يقتضيهما قبل حدوث الاقتران والامتزاج والاختلاط، أما بعد ذلك فليس ثمة إلا وجود واحد، ويرى ابن عربي أن الاتحاد يصح إذا كان: "بمنزلة ظهور الواحد في مراتب العدد، فيظهر العدد، فقد يصح الاتحاد من هذا الوجه"². وهذا يبدو تحقيقاً لمذهبه الأصيل وحدة الوجود.

وعندما نعرف الاتحاد من حيث اللغة والاصطلاح نلفي أنه: "امتزاج الشئيين، واختلاطهما حتى يصيرا واحداً، لاتصال نهايات الاتحاد"³. ومعلوم أن ابن عربي لا يثبت وجودين، وعندما أثبت الوجود والثبوت، لم يعدهما شيئاً واحداً، بل الوجود في نظره غير الثبوت، فصحح الاتحاد بين الوجود والثبوت، ولم يصحح بين الوجودين - أي وجود الحق ووجود

¹ ابن عربي، محي الدين الأندلسي: كتاب المسائل ضمن رسائل ابن عربي: تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود (القاهرة، مكتبة عالم الفكر، ط 1، 1416هـ، 1996م) 29/2.

² المصدر السابق والصفحة نفسها.

³ الجرجاني، السيد الشريف: التعريفات (مصر، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، د.ط، 1357هـ، 1938م) ص 4.

الممكنات- وهذا تناقض واضح، لأن التفريق بين الثبوت والوجود لا يصح، فإن إثبات الشيء وجوده، ووجوده دليل ثبوته. ولما سئل الجنيد(ت هـ) عن التوحيد قال: "التوحيد أفراد المحدث عن القدم"⁴. أنكر ذلك ابن عربي، وادعى أن الجنيد وأمثاله ماتوا وما عرفوا التوحيد، وذلك لأنهم أثبتوا وجودين، وجود العبد ووجود الرب، وفرقوا بين العبد والرب، والتوحيد يقتضي خلاف ذلك في نظره، قال ابن عربي: "من عرف نفسه علم أن وجوده ليس بوجوده، ولا غير وجوده، بل وجوده وجود الله بلا صيرورة وجوده وجود الله، بلا دخول وجوده في الله، ولا خروج وجوده منه"⁵.

وكلام ابن عربي يدل على ما ذكرنا أن لا يرى وجودين بل وجودا واحدا، وإنما هناك وجود وثبوت أي وجود الحق الذي فاض على ثبوت الممكنات، فوجودها وجوده، ووجوده وجودها، ولكن ذواتها ليست ذاته، ولا ذاته ذواتها.

يقول ابن تيمية الحراني(ت728هـ): "وكل من الوجود والثبوت لا ينفك عن الآخر، ولا يستغنى عنه، وهو شبيه بقول من يقول الوجود غير الماهية، وهو ملازم لها"⁶.

وهذه النظرية دفعت ابن عربي إلى الوقوع في التأويل المجحف لصفات الله وأسمائه، تجاوز مبالغت المعتزلة، وتعسفات بعض أساطين الأشاعرة، حيث يفسر اسما من أسمائه العلا، وهو العلي قائلا: "ومن أسمائه الحسنی، العلي، على من؟ وما ثم إلا هو، أو عن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها، وليست إلا هو"⁷. وربما يكون هذا النص لابن عربي غير صريح في إيضاح مذهبه، والإفصاح عن منهجه العقدي، لكنه أفصح عن ذلك في قوله: "ناديت يا أنا، فلم أسمع إجابة، فخفت من

⁴ القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (القاهرة، دار الكتب الحديثة، د.ط.ت) 29/1.

⁵ ابن عربي الرسالة الوجودية (مكتبة القاهرة، مصر، د.ط.ت) ص10-11.

⁶ ابن تيمية الحراني: بغية المرئاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد القائلين بالحلول والاتحاد، تحقيق: موسى بن سليمان الدويش (د.م. مكتبة العلوم والحكم، ط1، 1408هـ، 1988م) ص407.

⁷ نقلا عن ابن تيمية الحراني: جامع الرسائل، تحقيق: محمد رشاد سالم (د.م. مكتبة ابن تيمية، ط1، 1389هـ، 1969م) 164/1.

الطرد، فقلت: يا أنا لم لا تجيبي؟ فقال لي: يا متناقض الحكم، لو دعوتني أجبتك، وإنما دعوت أنا نانيتك، فأجب نفسك عنك، فقلت يا أنا، إنما قلت: أنا من حيث إن أنا في أنا، كما أن الواحد هو الواحد، قال: صدقت، فأجب نفسك عني، ولا تطلب مني الإجابة، فقل: لأنانيتك تجيبك" ⁸.

من دأب الصوفية المتفلسفة اللجوء إلى اللغة الرمزية الإشارية خوفا من الفقهاء الذين كانوا يتربصون بهم كل لحظة، فأبغض الناس إليهم هم الفقهاء لأنهم علماء الظواهر، لا يفهمون حقيقة رسالة الصوفية ومقاصدها وفلسفتها، ولا يصلون إلى مرتبتهم السامقة، لأنهم علماء البواطن والخفيا، وصلوا إلى مرتبة عالية من اليقين، بحيث تتكشف لهم ما لا يتكشف لغيرهم، وهذه المرتبة والدرجة هي العروج إلى الله، بحيث يتحد مع الله، فلا يفرق وقتئذ بين العابد والمعبود، والخالق والمخلوق، يقول ابن عربي: "ولهذا أجاز للواصل إلى الحقيقة أن يقول: أنا الحق، وأن يقول: سبحاني، وما وصل واصل إليه إلا ورأى صفاته صفات الله، وذاته ذات الله" ⁹.

وإنما أجاز ابن عربي ذلك لأنه لا يؤمن إلا بوجود واحد، فوجود العبد هو عين وجود المعبود، وكذا العكس، فإذا قال العبد: أنا الحق وسبحاني، فذلك قول وجود واحد سواء قلنا هو وجود الحق أو وجود الخلق، فإن ذلك أمر اعتباري، ولذا لم يرض ابن عربي بطريقة الجنيد عندما بين بين الوجودين، قال ابن عربي: "رأيت الجنيد في هذا التجلي - أي تجلي توحيد الربوبية - فقلت: يا أبا القاسم، كيف تقول: في التوحيد يتميز العبد من الرب، وأين تكون أنت عند هذا التمييز" ¹⁰.

وما ذهب إليه ابن عربي وغيره يقتضي أن كل معبود في الوجود هو معبود واحد، ومهما تنوعت العبادات فإنها جميعا تتجه نحو وجود واحد، أي معبود واحد، وهذا يلزم منه تصحيح عقائد غير المسلمين جميعها، بغض الطرف عن ماهيتها وكنهها، يقول أسين بلاثيوس: "وأما أهل التثليث فيرجى لهم التخلص لما في التثليث من الفردية، لأن الفرد من نعوت الواحد، فهم

⁸ ابن عربي: كتاب الياء ضمن رسائل ابن عربي 13/1.

⁹ ابن عربي: الرسالة الوجودية ص5.

¹⁰ ابن عربي: كتاب التجليات ضمن رسائل ابن عربي 34/2.

موحدون توحيد تركيب، فيرجى أن تعمهم الرحمة المركبة، ولهذا سمو كفارا لأنهم ستروا الثاني بالثالث، فصار الثاني بالثالث بين الوحدا والثالث كالبرزخ، فرمما لحق أهل التثليث بالموحدين في حضرة الفردانية، لا في حضرة الوحدانية"¹¹.

والذي دفع ابن عربي إلى تصحيح عقائد أهل الكتاب والكفار والمشركين وغيرهم، هو أن القوم في نظره يجدون سر الألوهية في عبادتهم، وإلا ما عبدوا تلك المعبودات، حيث يقول: "إن سر الألوهية لولا ما وجدها كل عابد في معبوده، أي عند عبادته لمعبوده ما عبده"¹². وينضاف إليه أن ابن عربي لا يفرق بين العابد والمعبود، ولما كان ذلك كذلك، أصبح كل معبود في الوجود معبودا واحدا، وإن اختلفت المسالك إليه، يقول ابن عربي:

يا ليت شعري من المكلف	الرب حق والعبد حق
أو قلت رب أنى يكلف ¹³	إن قلت عبد فذاك ميت
له وأنا لا فعل لي أراه	ويقول: "تعجبت من تكليف ما هو خالق
وما ثم إلا الله ليس سواه ¹⁴	فياليت شعري من يكون مكلفا
ويعبدني وأعبده ¹⁵ .	ويقول: "فيحمدني وأحمده

هذه النصوص والأبيات تكشف حقيقة مذهب ابن عربي في وحدة الوجود، تلك النظرية التي لها عمق تاريخي في الأديان والفلسفات القديمة، ولا تفتأ ثابوية في بعض كتب الفلسفة المعاصرة، وخاصة الغربية منها.

إلا أن ابن عربي الصريح غير من أسلوبه وانتهج مسلك الغموض والتعقيد في التعبير عن عقيدته وآرائه ومذهبه، وسبب ذلك كما ذكرنا الخوف من سطوة فقهاء الظاهر حسب تعبيره،

¹¹ أسين بلاثيوس: ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية: عبد الرحمن بدوي (الكويت، وكالة المطبوعات، د.ط.1979م) ص268.

¹² ابن عربي: كتاب الجلال والجمال ضمن رسائل ابن عربي 11/1.

¹³ ابن عربي: الفتوحات المكية (د.م. ط. دار الفكر) 1/2. وله: كتاب الجلالة ضمن رسائل ابن عربي 12/1.

¹⁴ ابن عربي: كتاب الجلالة 12/1.

¹⁵ الكاشاني: شرح فصوص الحكم (مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط3، 1407هـ، 1987م) ص95.

ولعل مصير الحلاج الرهيب كان له الأثر الكبير في لجوئه إلى تلك الطريقة الغمضة والعويصة، يقول ابن عربي: " وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو، فغوره بعيد، والتلف فيه قريب" ¹⁶. ولقد أشار إلى الحلاج (ت309هـ) بصريح العبارة، قائلاً:

فمن فهم الإشارة فليصنها
وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت
له شمس الحقيقة بالتداني" ¹⁷.

قال أسين بلاثيوس وهو يتحدث عن كتابي ابن عربي (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم) بأنهما: " من الغموض بحيث إن المسلمين أنفسهم من علماء العربية، ومتزلعين في العلوم الفلسفية، يصرحون بأنهم لا يستطيعون النفوذ دائما إلى المعنى الحقيقي" ¹⁸. ولقد حاول المستشرق نيكلسون أن يترجم هذا الكتاب (فصوص الحكم) ولكنه لم يستطع، حيث ذكر أن هذا الكتاب صعب الفهم، واصعب منه شروحها وتفسيرها" ¹⁹. ولعل يشير إلى ترجمة الكاشاني (ت730هـ) حيث قام بشرح الكتاب، ولكنه في الحقيقة ليس شرحا بل هو دفاع وتأويل لنصوصه التي يقتضي ظاهرها معاني مخالفة لعقيدة الفقهاء" ²⁰، والغريب أن المتخصصين في ابن عربي عانوا من هذه المشكلة، حيث يقول أبو العلا عفيفي: " فإن غموض أسلوبه، واستغلاق معانيه، قد صار مضرب المثل، وأصبحت الحقائق التي يعترف بها دارسو التصوف في كل زمان" ²¹.

¹⁶ ابن عربي: الفناء في المشاهدة من رسائل محي الدين بان عربي: ص8.

¹⁷ ابن عربي: كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى ضمن رسائل ابن عربي (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1361هـ) ص4. ولقد أشار صلاح الدين الهواري في تحقيقه لديوان الحلاج أن هذه الأبيات للحلاج، ولكن ذلك غير صحيح، لأمرين أولا، لقد ذكر تلك الأبيات ابن عربي في رسالته، وهو يشير إلى الحلاج وما آل إليه مصيره، ثانيا، لا يعقل أن يشير الإنسان إلى موته بهذه الطريقة، وإن كان الحلاج يتوقع ذلك من الفقهاء. انظر: ديوان الحلاج بتحقيق صلاح الدين الهواري (بيروت، دار الهلال، ط1، 2002م) ص15.

¹⁸ أسين بلاثيوس: ابن عربي حياته ومذهبه ص262.

¹⁹ عفيفي، أبو العلا: مقدمة كتاب فصوص الحكم (بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط.ت) ص12.

²⁰ الكاشاني: شرح فصوص الحكم، (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط3، 1407هـ، 1987م).

²¹ عفيفي: مقدمة كتاب فصوص الحكم لابن عربي ص16.

وما ذهب إليه المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس ليس سديدا، في كون الكتابين كليهما صعبا الفهم، ولقد اطلعت عليهما، فألفت الأول (الفتوحات المكية) ليس كالثاني (فصوص الحكم) من حيث الصعوبة والتعقيد والغموض، والمستشرق نيكلسون كان يعاني من (فصوص الحكم) وليس غيره، والدكتور عفيفي ذكر كلامه الآنف الذكر في مقدمة (الفصوص) وليس في مكمان آخر، وهو ربما يشير إليه دون غيره، وأمر آخر يضاف إليه، أن ابن تيمية الحراني عندما كان ينتقد ابن عربي، يركز على الفصوص لا الفتوحات المكية، ولقد كان ابن تيمية من المعجبين بابن عربي وتراثه، حيث يقول: "وإنما كنت قديما ممن يحسنون الظن بابن عربي ويعظمه، لما رايت من الفوائد، مثل كلامه في كثير من (الفتوحات المكية) و (الكنه) و (الحكم المربوط) و (الدرة الفاخرة) و (مطالع النجوم) ونحو ذلك، ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع الفصوص ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله، نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا"²². وفي هذا دليل واضح أن ابن عربي صاحب الخيال الفسيح كما يقول عن نفسه²³، بث في كتبه أمورا متنوعة، بحيث تناول كل ما يحتاج إليه المرید في مسلكه، ولكنه في الوقت نفسه يث أفكاره بصورة وحيزة جدا، بحيث لا يشعر المرید بذلك، نتيجة انشغال المرید بلب المسألة، وهو الفناء والكشف والتخلق بأخلاق الله تعالى كما يقول الغزالي، وحتى كتاب الفصوص يمر المرید على نصوصه وهو لا يدرك ما يدركه الفقيه النبيه، يقول ابن عربي: "وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالى فأمر فوق هذا، جعلناه مبدداً في هذا الكتاب، لكون أكثر العقول المحجوبة بأفكارها تقصر عن إدراكه، لعدم تجریدها"²⁴. ومثال ذلك قوله:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني"
فقال لي بعض إخواني كيف تقول: إنه لا يراك فقلت له في الحال مرتجلاً:

²² ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل 179/1.

²³ يقول ابن عربي وهو يتحدث عن نفسه وخیاله: "ولقد بلغ بي قوة الخيال، أن كان صلى الله عليه وسلم حيي يجسد لي

محبوبي من خارج لعيني كما كان يتجسد جبريل لرسول الله". انظر: أسين بلاثيوس: ابن عربي حياته ومذهبه ص163.

²⁴ ابن عربي: الفتوحات المكية، 47/1.

"يا من يراني مجرماً
كم إذ أراه منعماً
ولا أراه آخذاً
ولا يراني لائذا"²⁵.

حيث نجد في لحظة واحدة يغير رأيه وموقفه ومذهبه، بمجرد أن لاحظ أن غيره فهم مذهبه على حقيقته التي تقتضي مصادمة عقيدة فقهاء السنة.

ولقد ذكر ابن تيمية مثالا على ما نحن بصددده، حيث يقول: "ولقد قال لي أفضل شيوخ هؤلاء في الديار المصرية، لما أوقفته على بعض ما في هذا الكتاب - فصوص الحكم - مثل هذا الموضوع وغيره، قال: هذا الكتاب عندنا من أربعين سنة نعظمه، ونعظم صاحبه، ما أظهر لنا هذه المصائب إلا أنت"²⁶. ولا ريب أن ابن تيمية وابن دقيق العيد وغيرهما سيكشفون هذه الأمور، لأنهم من الفقهاء.

يقول المستشرق الشهير جولد زيهر: "لقد كان هؤلاء الصوفيون يتحدثون بلغة لا بد أنها بدت شديدة الغرابة والشذوذ في نظر فقهاء السنة"²⁷.

ولعلنا بحاجة إلى ذكر أمثلة على تناقضات ابن عربي أو بالأحرى اضطرابه أو ربما أساليبه في التعبير عن مذهبه الحقيقي، ولقد ذكر أبو العفيفي أن كتاب (فصوص الحكم) يمثل خلاصة مذهب ظل يضطرب في صدره نيفا وأربعين عاما"²⁸. ومما يؤيد كلا عفيفي أن ابن عربي نفسه أشار إلى ذلك في كون كتابه يمثل الخلاصة لمذهبه، معولا على رؤيا، يقول: "فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، ويده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا كتاب (فصوص الحكم) خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا"²⁹.

²⁵ المصدر السابق، 491/2.

²⁶ ابن تيمية: بغية المرتاد ص 488.

²⁷ جولد زيهر أجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام ترجمة: ليف من الأساتذة (بيروت، دار الرائد العربي،

د.ط. 1946م) ص 155.

²⁸ أبو العلا عفيفي: مقدمة كتاب فصوص الحكم ص 7.

²⁹ ابن عربي: فصوص الحكم بشرح الكاشاني ص 9.

ومن الأمثلة التي تبين التناقض بين كتابه الأول (الفتوحات المكية) والثاني (فصوص الحكم) حديثه عن إيمان فرعون، حيث ذكر في كتابه الأول، بأن فرعون من المجرمين الذين ادعوا الربوبية لأنفسهم، ونفوها عن غيرهم، وهو من الفرق التي تدخل النار³⁰. بينما في فصوص الحكم يثبت لفرعون إيمانا، وأن الذين دخلوا النار هم آله فقط، وليس في القرآن ما يدل على عذابه³¹. ولقد حاول شرح كتابه الكاشاني تأويل كلام ابن عربي المذكور، حيث رجح في كون فرعون مات فاسقا، وأنه سيعذب بسبب ظلمه وجرائمه، ولكنه آمن قبل أن يدركه الغرق، فهو مؤمن³². بينما أحدهم يقطع في كون ذلك مدسوسا على ابن عربي³³.

إلا أن الشعراي يحسم المسألة عندما يتحدث عن قواعد الصوفية وعقائدهم، في كون فرعون مات على الكفر، وأنه لا ينفعه إيمانه البتة³⁴.

ولو دخل أهل النار النار كفرعون وغيره، فإن تلك النار تتحول إلى لذة ونعيم وعيش رغيد، فلا ألم ولا عذاب ولا وجع في نظر ابن عربي، قال ابن عربي:

وإن دخلوا دار الشقاء فيأثمهم	على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد	وبينهما عند التحلي تباين
يسمى عذابا من عذوبة لفظه	وذاك له كالقشر والقشر صائن ³⁵ .

³⁰ ابن عربي الفتوحات المكية 301/1.

³¹ ابن عربي: فصوص الحكم بشرح الكاشاني ص 309-310.

³² ابن عربي: فصوص الحكم بشرح الكاشاني ص 310.

³³ الرفاعي، أحمد عبد الله: العقيدة الحقة في الرد على أهل الحلول والوحدة المطلقة، وعلى من رمى الطائفة الصوفية بالكفر والزندقة (بيروت، عالم الكتب، ط1، 1404هـ، 1983م) ص 109.

³⁴ الشعراي، عبد الوهاب: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية (القاهرة، دار جوامع الكلم، ط2، د.ت) ص 14.

³⁵ أبو العلا عفيفي: مقدمة كتاب فصوص الحكم لابن عربي ص 422.